المعرفة بالله تعالى

٢

فصل

قال « الدرجة الثانية معرفة الذات مع إسقاط التفريق بين الصفات والذات ، وهي تثبت بعلم الجمع ، وتصفو في ميدان الفناء ، وتستكمل بعلم البقاء ، وتشارف عين الجمع » نشرح كلامه ومراده أولا ثم نبين ماله وعليه فيه ، فكانت هذه الدرجة عنده أرفع مما قبلها ، لأن التي قبلها نظر في الصفات وهذه متعلقة بالذات الجامعة للصفات، وان كانت الذات لاتخلو عن الصفات فهي قائمة بها، ولا تقول : ان صفاتها عينها ولا غيرها ، لما في لفظ الغير من الاجمال والاشتباه ، فان الغيرين قد يراد بهما ماجاز افتراقهما ذاتا أو زمانا أو مكانا ؛ وعلى هذا فليست الصفات مغايرة للذات ، ويراد بالغيرين ماجاز العلم باحدهما دون الآخر فيفترقان في الوجود الذهني لافي الوجود الخارجي ، فالصفات غير الذات بهذا الاعتبار لانه قد يقع الشعور بالذات حال مايغفل عن صفاتها فتتجرد عن صفاتها في شعور العبد لافي نفس الامر .

وقوله « مع اسقاط التفريق بين الصفات والذات » التفريق بين الصفات والذات في الوجود مستحيل ، وهو ممكن في الشهود بان يشهد الصفة ويذهل عن شهود الموصوف ، أو يشهد الموصوف ويذهل عن شهود الصفة ، فتجريد الذات أو الصفات انما يمكن في الذهن ، فالمعرفة في هذه الدرجة تعلقت بالذات والصفات جميعا فلم يفرق العلم والشهود بينهما ، ولا ريب ان ذلك أكمل من شهود مجرد الصفة أو مجرد الذات . ولا يريد الشيخ انك تسقط التفريق بين الذات والصفات في الخارج والعلم بحيث تكون الصفات هي نفس الذات [1] فهذا لا يقوله الشيخ وان كان كثير من أرباب الكلام يقولون ان الصفات هي الذات . فليس مرادهم ان الذات نفسها

(١) في ب « بحيث تكون الذات هي نفس الصفات »

صفة ، فهذا لايقوله عاقل ، وانما مرادهم ان صفاتها ليست شيئاً غيرها . فان أراد هؤلاء ان مفهوم الصفة هو مفهوم الذات فهذا مكابرة ،وان أرادوا انه ليس هاهنا أشياء غير الذات انضمت اليها وقامت بها، فهذا حق

والتحقيق ان صفات الرب جل جلاله داخلة في مسمى اسمه ، فليس اسمه الله والرب والإله أسماء لذات مجردة لا صفة لها البتة ، فان هذه الذات وجودها مستحيل ، وانما يفرضها الذهن فرض الممتنعات ثم يحكم عليها ، واسم الله سبحانه والرب والإله اسم لذات لها جميع صفات الكمال ونعوت الجلال ، كالعلم والقدرة والحياة والارادة والكلام والسمع والبصر والبقاء والقدم وسائر الكمال الذي يستحقه لذاته ، فصفاته داخلة في مسمى اسمه ، فتجريد الصفات عن الذات والذات عن الصفات فرض وخيال ذهني لاحقيقة له ، وهي أمر اعتباري لافائدة فيه ولا يترتب عليه معرفة ولا ايمان ولا هو علم في نفسه ، وبهذا أجاب السلف الجهمية لما استدلوا على خلق القرآن بقوله الله (الله خالق كل شيء) فاجابهم السلف بان القرآن كلامه وكلامه صفاته وصفاته داخلة في مسمى اسمه كعلمه وقدرته وحياته وسمعه و بصره ووجهه ويديه ، فليس « الله » اسما لذات لانعت لها ولا صفة ولا فعل ولا وجه ولا يدين ، ذلك إله معدوم مفروض في الأذهان لاوجود له في الاعيان كإله الجهمية ، الذي فرضوه غير خارج عن العالم ولا داخل فيه ولا متصل فيه ولا منفصل عنه ولا محايث له ولا مباين ، وكإله الفلاسفة الذي فرضوه وجوداً مطلقا لا يتخصص بصفة ولا نعت ولا له مشيئة ولا قدرة ولا ارادة ولا كلام ، وكإله الاتحادية الذي فرضوه وجوداً ساريا في الموجودات ظاهرا فيها هو عين وجودها ، وكإله النصارى الذي فرضوه قد اتخذ صاحبة وولدا وتدرع بناسوت ولده واتخذ منه حجابا ، فكل هذه الآلهة مما عملته أيدي أفكارها . وإله العالمين الحق هو الذي دعت اليه الرسل وعرفوه باسمائه وصفاته وأفعاله فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ، موصوف بكل كمال ، منزه عن كل نقص ، لامثال له ولا شريك ولا ظهير ، ولا يشفع عنده أحد الا باذنه ، هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ، غني بذاته عن كل ماسواه وكل ماسواه فقير اليه بذاته

قوله « وهي تثبت بعلم الجمع ، وتصفو في ميدان الفناء » يعني ان هذه المعرفة الخاصة تثبت بعلم الجمع ، ولم يقل « بحال الجمع ولا بعينه ولا مقامه » فان علمه أولا هو سبب ثبوتها ، فان هذه المعرفة لا تنال الا بالعلم فهو شرط فيها ، وسيأتي الكلام — ان شاء الله تعالى — في الجمع عن قريب . فاذا علم العبد انفراد الرب سبحانه بالازل والبقاء والفعل وعجز من سواه عن القدرة على ايجاد ذرة أو جزء من ذرة ، وانه لا وجود له من نفسه فوجوده ليس له ولا به ولا منه ، وتوالى هذا العلم عن القلب لا يسقط ذكر غيره سبحانه عن البال والذكر ، كما سقط غناه وربوبيته وملكه وقدرته ، فصار الرب سبحانه وحده هو المعبود والمشهود المذكور ، كما كان وحده هو الخالق المالك الغني الموجود بنفسه أزلا وأبداً ، وأما ما سواه فوجوده وتوابع وجوده عارية ليست له ، وكلما في العبد عن ذكر غيره وشهوده صفت هذه المعرفة في قلبه ، فلهذا قال « وتصفو في ميدان الفناء » واستعار الشيخ للفناء ميدانا وأضافه اليه لاتساع مجاله لأن صاحبه قد انقطع التفاته الى ضيق الاغيار ، انجذبت روحه وقلبه الى الواحد القهار ، فهي تجول في ميدان أوسع من السماوات والارض ، بعد ان كانت مسجونة في سجون المخلوقات . فاذا استمر له عكوف قلبه على الحق سبحانه ونظر قلبه اليه كانه يراه ، ورؤية تفرده بالخلق والامر والنفع والضر والعطاء والمنع — كملت في هذه الدرجة معرفته ، واستكملت بهذا البقاء الذي أوصله اليه الفناء وشارفت عين الجمع بعد علمه ، فغاب العارف عن معرفته بمعروفه وعن ذكره بمذكوره وعن محبته وارادته بمراده ومحبوبه فلذلك قال :

« ويستكمل بعلم البقاء ويشارف عين[1] الجمع » ولهذه المعرفة ثلاثة أركان[2] أشار اليها الشيخ بقوله ﴿ارسال الصفات على الشواهد ، وارسال الوسائط على المدارج ، وارسال العبارات على المعالم﴾ شواهد الصفات هي التي يشهد بها ويدل عليها من الكتاب والسنة وشهادة العقل والفطرة وآثار الصنعة فاذا تمكن العبد في التوحيد علم ان الحق سبحانه هو الذي علمه صفات نفسه بنفسه ، لم يعرفها العبد من ذاته ولا بغير تعريف الحق له بما أجراه له سبحانه على قلبه من معرفة تلك الشواهد

(١) في المتن « بعين الجمع » (٢) في المتن « وهي ثلاثة أركان : ارسال ... الخ

والانتقال منها الى شهود[1] المدلول عليه ، فهو سبحانه الذي شهد لنفسه في الحقيقة ، اذ تلك الشواهد مصدرها منه فشهد لنفسه بنفسه بما قاله وفعله وجعله شاهدا لمعرفته . فهو الاول والآخر ، والعبد آلة محضة ومنفعل ومحل لجريان الشواهد وآثارها وأحكامها عليه ليس له من الامر شيء ، فهذا معنى ارسال الصفات على الشواهد ، فاذا أرسلها عليها تبين له ان الحكم للصفات دون الشواهد بل الشواهد هي آثار الصفات ، فهذا وجه

ووجه ثان أيضا وهو أن الشواهد بوارق وتجليات تبدو للشاهد ، فاذا أرسل الصفات على تلك الشواهد توارى حكم تلك البوارق والتجليات في الصفات وكان الحكم الصفات فحينئذ يترقى العبد الى شهود الذات شهوداً علميا عرفانيا كما تقدم

قوله « وارسال الوسائط على المدارج » الوسائط هي الاسباب المتوسطة بين الرب والعبد التي بها تظهر المعرفة وتوابعها ، والمدارج هي المنازل والمقامات التي يترقى العبد فيها الى المقصود ، وقد تكون المدارج الطرق التي يسلكها اليه ويدرج فيها ، فارسال الوسائط التي من الرب على المدارج التي هي منازل السير وطرقه توجب كون الحكم لها دون المدارج فيغيب عن شهود المدارج بالوسائط وقد غاب عن شهود الوسائط بالصفات فيترقى حينئذ الى شهود الذات ، وحقيقة الامر أن يعلم أن الرب سبحانه ما أطلعه على معرفته الا بشواهد منه سبحانه و بوسائط ليست من العبد ، فهو قادر على قبض تلك الشواهد والوسائط وعلى اجرائها على غيره فان الامر كله له وتلك الوسائط لا توجب بنفسها شيئا قال الله تعالى لرسوله (ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا اليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا ٭ الا رحمة من ربك - وقال للامة على لسانه — قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به — وقال تعالى — قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به) ويعلم العبد ان ما أخبر به الرب تعالى على لسان رسوله من شواهد معرفته والايمان به هي معالم يهتدي بها عباده اليه ويعرفون بها كماله وجلاله وعظمته ، فاذا تيقنوا صدقه ولم يشكوا فيه وتفطنوا لآثار أسمائه وصفاته في أنفسهم وفي سواهم انضم شاهد

(١) في ب « المشهود »

العقل والفطرة الى شاهد الوحي والشرع ، فانتقلوا حينئذ من الخبر الى العيان ، فالعبارات معالم على الحقائق المطلوبة ، والمعالم هي الأمارات التي يعلم بها المطلوب ؛ فاذا أوصل العارف كل معنى مما تقدم ذكره على مقصوده وصرف همته الى مجريه وناصبه ومصدره اجتمع همه عليه وتمكن في معرفة الذات التي لها صفات الكمال ونعوت الجلال . ومقصوده أن يبين في هذه الاركان الثلاثة حال صاحب معرفة الذات وكيف تترتب الاشياء في نظره ويترقى فيها الى المقصود

مثال ذلك ان الشواهد أرسلته الى الصفات بارسالها عليها فانتقل من مشاهدتها الى مشاهدة الصفات والوسائط التي كان يراها آية على المدارج انتقل فانتقل منها الى المدارج ولم يلقها وانما تعلق بما هي آية له . والعبارات التي كانت عنده ألفاظا خارجة عن المعبر عنه صارت أمارات توصله الى الحقيقة المعبر عنها . فبهذه الاركان الثلاثة يصير من أهل معرفة الذات عنده

قوله ﴿ وهذه[(١)] معرفة الخاصة التي تؤنس من أفق الحقيقة ﴾ أي تدرك وتحس من ناحية الحقيقة، والايناس الادراك والاحساس قال الله تعالى (فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم) وقال موسى (اني آنست من جانب الطور نارا) والمقصود ان العارف اذا علق همه بافق الحقيقة وأعرض عن الاسباب والوسائط — لا إعراض جحود وانكار بل إعراض اشتغال ونظر الى عين المقصود — أوصله ذلك الى معرفة الذات الجامعة لصفات الكمال والله سبحانه وتعالى أعلم

فصل

قال ﴿ الدرجة الثالثة معرفة مستغرقة في محض التعريف ، لا يوصل اليها الاستدلال ، ولا يدل عليها شاهد ، ولا تستحقها وسيلة ، وهي على ثلاثة أركان: مشاهدة القرب[(٢)] والصعود عن العلم ، ومطالعة الجمع ، وهي معرفة خاصة الخاصة ﴾ انما كانت هذه المعرفة عنده أرفع مما قبلها لان ما قبلها متعلقة بالوسائط والشواهد متصلة الى المطلوب ، وهذه متعلقة بعين المقصود فقط ، طاوية للوسائط والشواهد ،

(١) في المتن «وهي معرفة » الخ (٢) في المتن « القلوب » ولعلها غلط

فالوسائط صاعدة عنها اليه وهي غالبة على حال العارف وشهوده وقد استغرقت ادراكه لما هو فيه بحيث غاب عن معرفته بمعروفه وعن ذكره بمذكوره وعن وجوده بموجوده

فقوله « مستغرقة في محض التعريف » المعرفة صفة العبد وفعله ، والتعريف فعل الرب وتوفيقه ، فاستغرقت صفة العبد في فعل الرب وتعريفه نفسه لعبده . وقوله « لا يوصل اليها بالاستدلال » يريد ان هذه المعرفة في الدرجة الثالثة لا يوصل اليها بسبب فان الأسباب قد انطوت فيها ، والوسائل قد انقطعت دونها ، فلا يدل عليها شاهد غيرها ، بل هي شاهد نفسها ، فشاهدها وجودها ودليلها نفسها . ولا تعجل بانكار هذا فالامور الوجدانية كذلك ودليلها نفسها وشاهدها حقيقتها ، فتصير هذه المعرفة للعارف كالامور الوجدانية . كاللذة والفرح والحب والخوف وغيرها من الامور التي لا يطلب من قامت به شاهدا عليها من سوى أنفسها

ولعمر الله ان هذه درجة من المعرفة منيفة ورتبة شريفة تنقطع دونها أعناق مطايا السائرين ، فلذلك لا يوصل اليها بالاستدلال ولا يدل عليها شاهد ولا تستحقها وسيلة ، والاعمال والاحوال والمقامات كلها وسائل وهي لا تستحق هذه الدرجة من المعرفة وانما هي فضل من الفضل كله بيده وهو ذو الفضل العظيم ؛ وكون الوسائل المذكورة لا تستحقها لا تمنع من القيام بها على أتم الوجوه وبذل الجهد فيها ، ومع ذلك فلا تستحقها الوسائل

قوله « وهي على ثلاثة أركان : مشاهدة القرب والصعود عن العلم ومطالعة الجمع » انما كانت هذه الثلاثة أركانا لها لان صاحب هذه المعرفة قد وصل من القرب الى مقام يليق به بحسب معرفته فكلما كانت معرفته أتم كان قربه أتم ، فان شهود الوسائط والوسائل حجاب عن عين القرب ، وإنقاؤها وجحودها حجاب عن أصل الايمان . وأما صعوده عن العلم فليس المراد به صعوده عن أحكامه فان ذلك سقوط ونزول الى الحضيض الادنى ، لا صعود الى المطلب الاعلى ، وانما المراد انه يصعد باحكام العلم عن الوقوف معه وتوسيطه بينه وبين المطلوب فان الوسائط قد طوي بساطها في هذا الشهود والمرقات ، أعني بساط الوقوف معها والنظر اليها فيدرك مشهوده ومعروفه به سبحانه لا بالعلم والخبر بل بالمشاهدة والعيان ، وان كان لم يصل الى

ذلك الا بالعلم والخبر لكنه قد صعد من العلم والخبر الى المعلوم المخبر عنه .

وأما مطالعة الجمع فهي الغاية عند هذه الطائفة ، ونحن لا ننكر ذلك لكن : أي جمع هو ؟ هل هو جمع الوجود كما يقوله الاتحادي ؟ أم جمع الشهود كما يقوله صاحب الفناء في توحيد الربوبية ؟ أم هو جمع الارادة كلها في مراد الرب تعالى الديني الامري؟ فالشأن في هذا الجمع الذي مطالعته من أعلى أنواع المعرفة . نعم هاهنا جمع آخر مطالعته هي كل المعرفة وهو جمع الافعال في الصفات وجمع الصفات في الذات وجمع الاسماء في الذات والصفات والافعال ، فمطالعة هذا الجمع هي غاية المعرفة وأعلى أنواعها ، وهي لعمر الله معرفة خاصة الخاصة، والله المستعان وبه التوفيق ولا حول ولا قوة الا بالله إه

[المنار]

ان أكثر الناس يرون هذا الكلام غريباً لا يكاد يفهم ، ويعدون هذه المعرفة خيالية لا تكاد تعقل، ومثل هؤلاء العارفين في نظر جمهور أهل العلوم النظرية والفنون العملية، كمثل خواص الادباء الذين يتمتعون بجمال المعاني الدقيقة، متجلية في العبارات الرشيقة ، في نظر عوام أهل البلادة . ذوي العيّ والفهاهة ، — أو كمثل بعض أهل الذوق السليم، العاشقين لجمال هذا الكون المعظم، يؤمون روضة غناء، أو غابة غبياء، يسابقون اليها أشعة الشمس، ليتمتعوا بجمالها الحس والنفس ، — في نظر مجرم فظ ، غليظ الطبع، لا يرى حظا من تلك الروضة الا أن يجتث أزهارها، ويقطع أشجارها ، ليتخذ الاولى علفا لحماره ، والثانية وقودا لناره ، أو كمثل المغرمين بآلات الطرب ، وسماع الالحان في العشق والادب ، في نظر العابد المتبتل ، أو العجوز الثاكل ،

على أن جميع اللذات المعنوية ما أشرنا اليها منها وما لم نشر اليه هي مبادئ ووسائل لتلك اللذة الروحية العليا التي يجدها العارفون بالله تعالى، فكل ما في الكون من الجمال والكمال فهو بعض جماله وكماله عز وجل ، اذ هو صنع الله الذي أتقن كل شيء . وكل طائفة من طوائف البشر المرتقية تتمتع بنوع من أنواع جمال الكون والعارفون بالله هم الذين يتمتعون بكل نوع من تلك الانواع تمتعا ارقى واعلى من تمتع المنفردين بالارتقاء فيه ، ويتمتعون بما هو أعلى من ذلك وأجل واكمل ، وقد ضربنا لذلك المثل ، والله اعلى واجل ؟